الفن في عصر فجر السلالات:

عصر دويلات المدن السومرية (٢٩٠٠ – ٢٣٧٠) ق.م

ان اول النصوص الواضحة التي ورد فيها اسم السومريين كان في ألقاب ملوك حضارة وادي الرافدين ، وهو لقب : (ملك بلاد سومر وبلاد اكد) . وان اول الملوك الذين اتخذوا هذا اللقب هو الملك السومري (اوتو – حيكال) . وكلمة (سومر) تعني (ارض سيد القصب او الاحراش) والمقصود به الاله (أيا) او (انكي).

اما بالنسبة لأصل السومريين فقد اختلف الباحثون والاثاريون في تحديد اصلهم ، ومن الثابت انه لم يعثر على اثار لهم في أي بقعة من العالم عدا بلاد الرافدين مما يؤكد مرجعيتهم الرافدينية ، الامر الذي "يزيد من فكرة محلية الشعب السومري ترسخا على حساب هجرتهم المفترضة التي لا تسندها اية براهين" .

واستنادا الى المدونات التاريخية ، سميت الحقبة الزمنية التي حكم بها السومريون بـ(عصر دويلات المدن السومرية) او (عصر السلالات) ،. بحيث يكون تحديده الزمني في الحقبة الواقعة ما بين نهاية دور (جمدة نصر) وبداية حكم (سرجون) ، فإنه يكون قد دام زهاء اربعة قرون او خمسة ، الا ان التأثير الحضاري السومري تعدى على هذه الفترة الزمنية ليشمل حضارة بلاد الرافدين كلها .

وتميز هذا العصر بأنه عصر ازدهار الحضارة في وادي الرافدين ونضجها، وهو العصر الذي سادت فيه اللغة السومرية وكذلك الثقافة السومرية ، وغالباً ان السلالات التي حكمت فيه كانت سلالات سومرية.

لقد استطاع الباحثون ، بالاستناد الى اثار هذا العصر ، ان يقسموه الى ثلاثة اطوار رئيسية ، وهي عصر فجر السلالات الاول والثاني والثالث .

سمي الاول منها بالعصر الشبيه بالكتابي ، اذ لم تنضج الكتابة فيه بعد ، كما تميز ببساطته في المنجز الفني مقارنة مع العصرين الاخرين . اما

العصر الثاني فهو العصر الذي اكتملت فيه الكتابة وتدوين شؤون الحياة العامة وخاصة الدينية ، وعثر على كثير من النتاجات الفنية التي تعود لهذا العصر ومنها تماثيل تل أسمر الاثنا عشر. وعدد من الصولجانات منحوتة الرؤوس باشكال حيوانية او ادمية او نباتية. ويمثل العصر الثالث منه أوج الازدهار والتطور ، وتميز بالمقبرة الملكية في (اور) التي يرجع زمنها الى سلالة اور الاولى ، وكذلك بحكام (لجش)، أي سلالة (اور – نانشة).

ان من ابرز المواقع الاثرية لحضارة عصر فجر السلالات المواقع الاثرية في منطقة ديالى في تل اسمر ، وتل خفاجي ، وتل اشجالي ، وتل اجرب . ومن اهم معابد منطقة ديالى هو معبد الاله (سين) ، ومعبد الالهة (ننتو) والمعبد البيضوي ، ومعبد الاله (آبو) ، ومعبد الاله (شارا) . ومن المواقع الاثرية المهمة الاخرى في هذا العصر هي (كيش) و (اريدو) و (شروباك) و(نفر) و (لجش) و (تل العبيد) و(اور) . وقد تميزت فنون هذا العصر بالطابع الديني عموما ، حيث تماثيل الالهة والمتعبدين وغيرها مما يخص الطقوس الدينية العقائدية التي نفذت كرموز مصورة ، مالت الى شيء من الاختزال والتبسيط من حيث اعتماد الاشكال الهندسية في بناء هيئة الجسم . وان ما يميز التماثيل السومرية الممثلة للالهة والمتعبدين عموما هو سعة العيون التي لم يوجدها النحات اعتباطا و انما هي نابعة من فكره وعقيدته، ولما لها من تأثير ووقع في نفوس مشاهديها الذين يدخلون الى المعابد ، حيث التأمل والوقفة المليئة بالخشوع امام حضرة الآلهة . كما صور النحات السومري آلهته بهيئة رموز منها حيوانية ومنها آدمية ومنها ما هو مركب بين الادمي والحيواني ، او ما هو جامع بين حيوانين معا . وكذلك ماهو نباتي وفلكي . وكل ذلك لاعتقادهم ان هذه التماثيل تقربهم الى الالهة ، فترضى عنهم وتغدق عليهم بالنعم .

لقد تميزت بعض دويلات مدن سومر بالنظام السياسي وبعضها ديني والرأي السائد حتى الان ؛ هو ان كل من هذه المدن كانت تؤلف دولة مدينة مصغرة مستقلة يحكمها ملك . الا ان هذا الحال لم يدم طويلا فقد نجحت بعض السلالات الحاكمة في فرض نفوذها وتوسيع سيطرتها على المناطق المحيطة . فلقد ظفرت الوركاء واور كلتاهما عدة مرات بالسيطرة على البلاد كلها . ومع ذلك لم يستطع ملوك (لجش) من فرض سيطرتهم الا على جيرانهم المباشرين فقط. بينما بقيت نفر واريدو محتفظتين بسلطتيهما الدينية كمركزين دينيين ، من دون ان تكون لهما مطامع سياسية .

كما انه لا توجد سلالة واحدة حاكمة في مدينة قد نجحت في الاحتفاظ بسيطرتها لمدة طويلة على البلاد من شمالها الى جنوبها ، حتى بقيت هذه البلاد مقسمة باستمرار بين القوى المتنازعة . وامتدت هذه الحالة الشبه فوضوية زهاء اربعة قرون تقريبا حتى ظهر (سرجون الاكدي) وتمكن من توحيد البلاد.

في عصر فجر السلالات كانت المنحوتات مجسمة تمثلت بأشكال آدمية بارزة على سطح الأختام الاسطوانية وكانت هيئة التماثيل المجسمة والبارزة هندسية وجامدة (أي تجريدية) عدا ملامح الوجه بينما كانت المنحوتات واقعية التصوير . ولم يرتق فن النحت في عصر فجر السلالات إلى النحت في عصر الوركاء لان المنحوتات غير ناضجة وغير متكاملة تمثلت بقطع نحتية صغيرة لأشكال آدمية وحيوانية غير واضحة المعالم.

أما الرسوم في عصر فجر السلالات فهي عبارة عن خطوط محززة على المنحوتات الطينية إذ وجدت صورا مرسومة ومرتبة في صفين أو ثلاثة صفوف تمثل أشخاصا يمارسون طقوسا تعبدية تمثل علاقات ملكية أو اجتماعية أو طبيعية منها رسم لمشهد موسيقى في منظر وليمة يحمل احدهم قيثارة ذات أوتار وصندوق للصوت على شكل رأس ثور . وفي النحت السومري يلاحظ من مجمل التماثيل إن اليدين في كل التماثيل تشابكتا بالقرب من الصدر وهو اسلوب ظهر في النحت السومري لتبيان الحالة الطقوسية المعبرة عن الخشوع الروحاني . ومن بين المنحوتات البارزة في هذا العصر الصخور التي حوّرت لتأخذ شكل مسلة نقش عليها مصورات تجسد أحداثا دنيوية خالصة . وفي مقبرة أور الملكية عثر على خناجر والقيثارة المشهورة وأكواب وتماثيل حيوانية وشعار المدينة الذي يصور مشهدا لمعركة وآخر يصور الاحتفال بالنصر . وان الرسومات السومرية تمثل صورا ملونة تحمل طابعا دينيا لشخصيات جامدة اتخذت شكلا زخرفيا متناظرا متعلق بالعبادة وأهمها مشهد يمثل وظائف الملك أمام الآلهة ، التي تميزت بألوانها الحارة كاللون الأحمر واللون الأصفر والألوان الباردة كاللون الأخضر واللون الأزرق ولعدم تمكنهم من تصنيع الأصباغ المقاومة للظروف الخارجية فقد اظاف السومريون إلى نتاجاتهم الفنية الأصداف وحجر اللازورد والعاج لإعطاء صفة الثبات والديمومة إلى جانب إضفاء مسحة جمالية تميز العمل الفني . وقد وجد في أور لوح من الفسيفساء اللازوردي مطّعم بأصداف صغيرة وضعت في صفوف وكانت تصور إحدى المعارك فيظهر الجنود والعربات أما اللوح الآخر فيصور مشهدا احتفاليا لعرض الغنائم أمام الملك و يوضح التكرار في الأشكال الآدمية ذات الوضع الجانبي وامتلاء مساحة اللوح بالعناصر دون تشتت لأنها متطورة من حيث التكوين الفني للرسم العراقي القديم . يمثل اللوح في وجهتيه مشهدين دراميين يعبران عن إمكانية الفنان في تسجيل الوقائع التاريخية التي تنم عن إدراك الفنان ووعيه في نقل وتسجيل المستوى الحياتي للمجتمع في الأعمال الفنية .

وإجمالا فان جميع المنحوتات السومرية في عصر فجر السلالات وجدت في المعابد لذلك كانت ملامحها عقائدية دينية ، ومنها تماثيل آدمية نادرة

لقطع حجرية مربعة مثقوبة من الوسط تسمى الألواح النذرية . وقد امتاز عمل الأختام الاسطوانية بتصوير الأشكال الأكثر ضخامة مثل الاسود والحيوانات المفترسة وصنعت الأختام من الأحجار الكريمة كما غطيّ بعضها بالفضة في إحدى نهايتيها .